الزهدُ والتصوّف :

زَهدَ في الشيء وعنه . رغبَ عنه وتركه . ومنه زَهدَ في الدنيا . أي تخلّى عنها للعبادة . فهو زاهد . وقد أوجز أبو سليمان الدارانيُّ (ت ٢١٥ هـ) ماقيلَ في معنى الزهد : « اختلفوا علينا في الزهد بالعراق . فمنهم من قال : الزهد في تركِ لقاءِ الناس ومنهم من قال في ترك الشهواتِ . ومنهم من قال في تركِ الشِّبع . وكلامُهم قريبٌ بعضهُ من بعض . وأنا أذهبُ الى أنَّ الزهدَ في تركِ مايشغلكَ عن الله »(١٧٩)

إنَّ ظاهرة الزهد ليست جديدة أو طارئة على العصر العباسي . فإنَّ الصحابة والتابعين كانوا زهّاداً . وكان كثيرٌ من القُصّاص والوعّاظ ينشدون في العصر الاموي أشعاراً فيها بوادر للزهد وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب عن متاع الدنيا الفاني . مثل مالك بن دينار والحسن البصريّ .(١٨٠) وحينما جاء عهد بني العباس أخذ الزهدُ مساراً مستقلاً . وأصبح الشعرُ الذي يُنظم فيه فناً قائماً بذاته . يواجه تيارَ الزندقةِ والإباحيةِ والفسادِ والعبثِ والمجونِ . ويسعى لإصلاح النفوس المريضة وملئها بنور الهدى واليقين .

واذا كان الزهد اتجاهاً سلوكياً مضمونه التقشُّفُ والإعراضُ عن الدنيا بالتزام العبادات وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار . فإنَّ التصوفَ نزعةٌ تتخذُ المجاهدةَ والرياضة الروحية . وتتجاوز الظاهر الشرعي بالتعمق في الباطن والوصول الى الكشف(١٨١) . ولا نخوض في هذا المكان ـ كما فعل كثيرٌ من الدارسين ـ في حقيقة التصوف ونشأته . أهو اسلامي خالصٌ أم متأثرٌ بالهندية كما يرى جولدزيهر(١٨٢) . أو المسيحية كما يرى فون كريمر(١٨٣) . وغيره من المستشرقين أمثال بروكلمان(١٨٤) . ونيكلسون(١٨٥) . ولكن حسبنا ما قاله ألفرد جيوم ،

---

(١٧٩) حلية الأولياء ٩ : ٢٥٨ .

(١٨٠) يرى نيكلسون أن الحسن البصري مؤسس مدرسة الزهد والتصوف في البصرة ، وأنه يعد في نظر الصوفية واحداً منهم ، لأنه ينزع الى حياة روحية خالصة في عبادته غير قانع بمجرد الصور الشكلية في أدائها (ينظر كتابه : في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢) .

(١٨١) التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ١٦٩ .

(١٨٢) العقيدة والشريعة ص ١٤١ .

(١٨٣) الحضارة الاسلامية ص ١٢٠ .

(١٨٤) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٥ .

(١٨٥) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢ .

« وتساؤلنا الى أي حدٍ كان المتصوِّفة متأثرين بعوامل ودوافع خارجة عن الاسلام أمر لا أهمية له . فالمؤكد أنَّ الاسلام نفسه بعقيدته وصومه وذكره كان أساس حياتهم »(١٨٦)

إنَّ شعراء الزهد والتصوف كثيرون ومن يرجع الى الكتب التي اهتمت بأخبارهم يجد عشرات الأسماء . وسنكتفي بذكر البارزين منهم . مثل عبدالله بن المبارك الذي نصح العباد بالتزام الخُلق القويم والطريق المستقيم . ودعاهم الى نبذ الآثام واجتنابها . والتزود بزاد التقوى والالتجاء الى الله الحي القيوم كقوله(١٨٧) :

ياطالبَ العلمِ بادر الورغا	وهاجر النَّومَ واهجرِ الشَّبعا
ياأيُّها الناسُ أنتمْ عشبٌ	يحصدهُ الموتُ كلما طلعا
لا يحصدُ المرءُ عندَ فاقتهِ	إلاَّ الذي في حياتهِ زرَعا

ولمحمد بن كُناسة شعرٌ في الزهد . سلكَ فيه مسلك الوعظ والنصح الدين والدعوة الى القيم الخُلقية الرفيعة التي أوصى بها الدي الحنيف . وسار على هديها السلفُ الصالح . وكان مترفعاً عن الدنايا . بعيداً عن كل مايخزي ويشين . وقد صرَّح بذلك في شعره(١٨٨) :

سألقى المنايا . لم أخالط دنيَّةً ولم تَسْرِ بي الى المخزيات قَلوصُ

ومن المتواضعين الزهاد محمود الوراق الذي أكثرَ من النظم في الزهد . دعا فيه الى طاعة الله ولزوم أوامره ونواهيه . والتوكُّل عليه . والثقة به . والرضا بقضائه . والتحصُّن بالصبر والقناعة . مثل قوله(١٨٩) :

مَنْ كانَ ذا مالٍ كثيرٍ ولم	يقنعْ فذاكَ الموسرِ المعسرُ
وكلُّ مَنْ كانَ قنوعاً وإنْ	كانَ مُقِلاً فهو المكثرُ
الفقرُ في غِنى النفسِ وفيها الغنى	وفي غِنى النفسِ الغِنى الأكبرُ

---

(١٨٦) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٨٥ .

(١٨٧) شعره ، المخطوطة ٣٣ .

(١٨٨) الأغاني ١٣ ، ٣٤٠ . وينظر ، محمد بن كناسة الأسدي ، حياته وشعره . مجلة آداب الرافدين ، العدد ٦ لسنة ١٩٧٥ ، المخطوطة ١٦ .

(١٨٩) ديوانه ص ٥٧ .

واشتهر الإمام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي بشعر الزهد والوعظ . وقد روت له المصادر أقوالاً وأشعاراً تدعو الى التربية الإسلامية ، والتمسك بحبل الله المتين ، والسير في درب البر والتقوى والعمل الصالح مثل قوله(١٩٠) :

يامَنْ تعزَّزَ بالدنيا وزينتها ... الدهرُ يأتي على المبني والباني
ومَنْ يكنْ عِزُّهُ الدُّنيا وزينتها ... فعِزُّهُ عن قليلٍ زائلٌ فاني
واعلمْ بأنَّ كنوزَ الأرضِ من ذهبٍ ... فاجعلْ كنوزَكَ مِنْ برٍ وايمان

ومن النساك المشهورات بالعبادة والصوم والاستغراق في الذات العليّة ، رابعة العدوية ، وهي لاتقلُّ شهرةً عن كبار الزهاد والمتصوفة آنذاك أمثال ابراهيم بن أدهم ، وسفيان الثوري ، وشفيق البلخي ، ومعروف الكرخي ، وبِشْر بن الحارث الحافي ، والحارث المحاسبي .. ومن شعر رابعة العدوية الذي يتجلّى فيه الحبُّ الإلهي الأبيات الآتية(١٩١) :

أحبُّكَ حبَّيْنِ : حُبَّ الهوى ... وحُبّاً لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأمّا الذي هو حُبُّ الهوى ... فَشُغْلي بذكرِكَ عمَّنْ سواكا
وأما الذي أنتَ أهلٌ لَهُ ... فكشْفُكَ للحجبِ حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لي ... ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا

وهناك شعراء تيقّظوا من غفلتهم ، وثابوا الى رشدهم ، وتابوا ، وأنابوا الى الله ونظموا شعراً زهدياً ، أمثال لام بن عبد العزيز ، ومحمد بن يسير ، وصالح بن عبد القدوس ، ويوسف بن القاسم ، ولقيط بن بكير المحاربي ، وأبي نواس ، وسعيد بن وهب ، وأبي العتاهية ... ولعلَّ هذا الأخير أكثرهم نظماً في الزهد ، حتى ليؤلف وحده ديواناً كاملاً ، وسنتحدث بالتفصيل عن حقيقته في ترجمته ، ولا بأس من ايراد هذا الشاهد من شعره(١٩٢) :

---

(١٩٠) شعره ص ٢٠٣ .

(١٩١) قوت القلوب ٢ : ٨٤ ، احياء العلوم ٤ : ٢٦٧ . وينظر الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي ص ١٢٨ .

(١٩٢) ديوانه ص ٢١٥ .

الى الله فارغب لا الى ذا ولا ذاكا فإنك عبدُ الله . والله مولاكا
وإنْ شئتَ أنْ تحيا سليماً من الأذى فكُنْ لشرار الناس ماعشْتَ تراكا

ونلاحظ أبا نواس . ذلك العابث الماجن . يندمُ في أخريات حياته على مااقترف من إثم . وينظم شعراً زهدياً يرجو فيه عفو الله وغفرانه . مثل قوله وهو يتضرع(١٣٣) :

يارب : إنْ عظمتْ ذنوبي كثرة فلقد علمتُ بأنّ عفوك أعظم
إنْ كان لا يرجوك إلّا محسنٌ فبمنْ يلوذُ . ويستجيرُ المجرم
أدعوك ـ ربّ ـ كما أمرت تضرُّعا فإذا رددْت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلةٌ إلّا الرّجا وجميلُ عفوك ثم إنّي مسلم

وتجدرُ الاشارة هنا الى أن هناك مجموعة من الشعراء عرفوا بعقلاء المجانين . أمثال عليان وبهلول وعباس وسعدون ... تميّزَ شعرهُم بصدق العواطف وحرارة المشاعر تجاه المحبوب . وهو الله سبحانه وتعالى . يلهجون بذكره ويأنسون بمناجاته . مثل قول عباس :(١٣٤)

يا حبيب القلوب من لي سواكا ؟ أرحم اليوم مذنباً قد أتاكا
أنت سُؤلي ومنيتي وسروري قد أبى القلبُ أنْ يحبّ سواكا
يا مُناي وسيّدي واعتمادي طال شوقي متى يكون لقاكا ؟
ليس سؤلي من الجنان نعيما غيرَ أنّي أريدُها لأراكا